الفصل السادس
مصداق الوعد

ولا نجد كتاريخ بنى إسرائيل مصداقًا للوعد المقدس الذى عاهد الله إبراهيم عليه ، ولا يعنينا فى هذا الجانب من البحث أن يكون الوعد المقدس هو وعد البركة والرسالة الذى حلّ فى إبراهيم وفى كلّ من تبع دينه من بعده ، كما لا يعنينا أن يكون الاختيار للأرض وليس للشعب ، وإنما يعنينا أن نتتبع تاريخ بنى إسرائيل فإن تاريخهم هو أبلغ برهان على صدق آيات الله فلو كان ما يعنونه بتفسير الوعد الإلهى حقًا لما كان هناك تناقض بين ما يعنونه وما جرى عليه تاريخهم منذ كان لهم تاريخ حتى اليوم ، ولأصبحوا منذ زمن بعيد سادة الهلال الخصيب بدلاً من أن لايكون لهم فيه مبرك بعير ، ولكانوا من كثرة العدد والانتشار ما يفوق كل ذرية إبراهيم الآخرين بدلاً من تلك القلّة التى لا تتجاوز بضعة عشر مليونًا ليسوا جميعًا من ذرية إبراهيم ، ولغدوا من الجاه والسلطان ما يفوق كل جاه أو سلطان لغيرهم بدل أن يكونوا أذلّاء مستضعفين فى العالم ، ولتباركت فيهم كلّ أمم الأرض بدل أن تنبذهم كل أمم الأرض ، فليس فى تاريخ بنى إسرائيل ما يوحى بأنهم حقًا ورثة هذا الوعد المقدس ، وإلاضلّ إيماننا بالقدرة الإلهية وبصدق وعد الله وحاشا لله أن يمترى وحاشا أن نلغو بالباطل كما يلغو به بنو إسرائيل .

ويبدأ تاريخ بنى إسرائيل بيعقوب أب الأسباط وقد عرفنا كيف نال يعقوب بزكة أبيه إسحاق بدل أخيه عيسو وكيف أصبح يلقب بإسرائيل

أى الأمير المجاهد فى سبيل الله بعد مصارعة له مع ملاك الرب « فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه . وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال لا أطلقك إن لم تباركنى . فقال له ما اسمك فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك[1] » .

ويعقوب هو الجيل الثالث لإبراهيم وقد ولد له من زوجه « لية » رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا وبساكر وزبولون وابنة اسمها « دينة » كما وله له من جاريتها زلفة ولدان هما « جاد » و « أشير » ، وولدت راحيل « يوسف » و « بنيامين » وولدت جاريتها « بلهة » « دان » و « نفتالى » فيكون جملة أولاده ابنة واحدة واثنى عشر ولدًا هم الأسباط الاثنا عشر .

وولد هؤلاء الأبناء جميعًا ما عدا بنيامين فى « فدان أرام » حيث خدم يعقوب صهره وخاله « لابان » نيفًا وأربعة عشر عامًا وفاء لمهر زوجتيه على ما تقص التوراة أما بنيامين فقد ولد فى مكان بين أفراتة وبيت لحم[2] ، فى طريق يعقوب عند أوبته إلى بيت أبيه وأرض ميلاده .

وتجرى الرواية بعد ذلك فى التوراة وفى القرآن عن نزول يعقوب وبنيه إلى مصر حيث أصبح لابنه وأخيهم يوسف شأن عظيم فى بلاط فرعون . ويقيم بنو إسرائيل فى مصر زمنًا ويكثر عددهم ويلقون بعد رعاية فرعون يوسف ذلًا ممن أتوا بعده من الفراعين فقد خافوا كثرتهم كما خافوا خيانتهم كما تقصّ التوراة ورأوا فيهم شعباً غريبًا لا يؤمن جانبه

---

(١) تكوين ٣٢ : ٢٤ - ٢٩ .
(٢) تكوين ٣٥ : ١٦ : ٢٠ .

ولا يرجى ولاؤه فاستعبدوهم «فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف . ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل ، كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا[1]».

ويبدو أن المصريين لم يستطيعوا هضم بنى إسرائيل فى بيئتهم ولم يتمثلوهم كما تمثلوا كل نازح من الغرباء إليهم واحتفظ بنو إسرائيل بطباعهم ومأثوراتهم وكل مقومات حياتهم بعيدة عن تأثير المصريين فعاشوا غرباء بينهم وليس للغريب فى الوطن النازح حق الأصيل مهما تقادم عليه العهد ، فالولاء للوطن ألفة ورباط وليس للغريب رباط أو ألفة لوطن يشعر أنه لا ينتمى إليه ، ولعل فى ذلك ما يفسر أمر فرعون بقتل الأبناء من المولودين دون البنات فإن استئصال الذكور يدفع بالإناث إلى ذكور آخرين من غير أبناء جنسهم ويكفل هذا التزاوج انصهار الشعب الغريب فى الشعب الأصيل وإن كان المفسرون يقولون بغير هذا ، وأن العرافين قد تنبأوا لفرعون بأن سيولد فى بنى إسرائيل ولد يغلبه وتكون نهايته على يديه فأمر بقتل كل مولود من الذكور .

وتقضى التوراة والقرآن فى قصة موسى وكيف ولد فأنقذه الله من أمر فرعون وردّه إلى أمه وكيف نشأ فى بيت فرعون حتى اشتدّ عوده ولم ينس أرومته فقتل مصريا دفاعًا عن عبرى وفر بعدها إلى أرض مدين ناجيًا بنفسه حيث تزوّج صفورة ابنة يثرون كاهن أو أمير مدين وعاش هناك زمنًا حتى بعث إلى بنى إسرائيل رسولاً ونبيا وليصعد بهم إلى أرض كنعان ، وأيّده الله بآيات من لدنه وأرسل معه أخاه هارون نبيًّا ليشدّ من أزره .

وصعد موسى ببنى إسرائيل من مصر وغاضت مياه البحر أمام بنى إسرائيل ليسلكوا طريقًا ذللًا ولحق به فرعون فأطبقت عليه مياه البحر

---

(١) خروج ١ : ١٣ - ١٤ .

فكان من المغرقين وتمّت معجزة السماء ونجا بنو إسرائيل من بطش فرعون ومن استعباد المصريين ، وخرجوا إلى برية سيناء ، لكنهم وقد جبلوا على الذل والغدر والنفاق والضلال كفروا بأنعم الله وصوّروا لأنفسهم عجلاً من ذهب عبدوه فضرب عليهم التيه فى البرية أربعين عامًا ولم يشأ الله أن يبطش بهم كما بطش بعاد وثمود وقوم لوط ولله فى ذلك حكمة فالخير والشر توأمان منذ بدء الخليقة ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وإن الله ليمهل ولكنه لا يهمل ، (ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) ، ولكن رحمته تعالى قد وسعت كل شيء فإذا وسعت رحمته بنى إسرائيل بعد ضلالهم ، فليضرب الله بهم مثلاً آخر غير المثل الذى ضربه بقوم عاد وثمود ومن ضل من قبل ، وليكون مثل بنى إسرائيل مثل من يجتبيه الله ويفضله بنعمائه ويكرمه ببركته فيكفر بأنعم الله وببركته تعالى فتحلّ عليه اللعنة إلى يوم الدين وتبقى اللعنة فيه وفى ذريته عبرةً لمن يكفر بأنعم الله ، ويضلّ سعيه فى الحياة الدنيا ، ويبقى المثل حيًّا بتجدّد اللعنة وتعاقبها فيهم جيلاً بعد جيل .

وهكذا كانت حياة بنى إسرائيل منذ أن كانوا حتى اليوم أمثولة للبشر ، وذكرى باقية حية لمن يكفر بنعمة الله . وأوّل آثار هذه اللعنة الأبدية أن تزول عنهم البركة وتغيض عنهم النعمة ، فهاهم بعد أن خرجوا من سيناء إلى قادش من مشارف أرض كنعان يمتنعون عن دخولها خوفًا وهلعًا من سكانها ويقولون لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون . فكأنهم بعد كل ما مرّ بهم من أحداث وما شاهدوه من معجزات السماء لا يثقون فى وعد الله بنصره إياهم ، ويقعدون عن دخول الأرض التى كتب الله لهم ، وقال الذين ذهبوا يكتشفونها إن « الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها هى أرض تأكل سكانها وجميع الشعوب الذى رأينا فيها

أناس طوال القامة . وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم[1] » .

وغضب الله عليهم وأراد ليبطش بهم لولا أن تشفع لهم موسى « فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين . لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلفت لهم فقتلهم فى القفر . فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلا . الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء إلى الجيل الثالث والرابع . أصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى هاهنا . فقال الرب قد صفحت حسب قولك . ولكن حى أنا فتملأ كل الأرض من مجد الرب . إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى . لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها[2] » .

وضرب الله عليهم التيه فى البرية أربعين عامًا بدل أن يبطش بهم حتى فنى ذلك الجيل الذى شهد معجزات الرب وعصاه فكانت تلك أوّل لعنة تنزل ببنى إسرائيل ، فالحرمان من دخول الأرض التى وعدهم الله والفناء فى التيه كانا قرينا عصيانهم وكفرهم بأنعم الله ، مما يؤيد ما قلناه من قبل وهو أن الوعد للبركة والرسالة وأن الاختيار للأرض وليس للشعب فمن حلت فيهم البركة والرسالة كانوا هم الموعودين بالأرض ، وقد ضلت البركة بنى إسرائيل حين كفروا بالرسالة فكان الحرمان من الأرض الموعودة جزاء ذلك ، فلم يكن وعد الرب مطلقًا من كل قيد أو شرط ،

---

(١) عدد ١٣ : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) عدد ١٤ : ١٥ - ٢٢ .

بل كان قرين الوفاء بالرسالة ، وسنرى أن الله حين اختار بني إسرائيل للبركة والرسالة ووعدهم بالأرض المقدسة قد ضرب بهم مثلاً للناس ، فمهما كانت قربى العبد إلى الله فليس له من بركته شيء ما لم يف بعهده ويقم برسالته ، فلن يميز الله إنساناً على إنسان أو قبيلاً على قبيل إلّا إذا كان قريبًا إلى الله بالإيمان والتقوى .

وبعد أن خرج بنو إسرائيل من تيههم إلى حيث كانوا فى قادش وهى واحة معشبة فى برية « صين » إلى الشمال من جبل الطور ، حيث كلم الله موسى ، يرد إليها الرعاء ويصدرون وسط هذا القفر ، وجد موسى أن مملكة أدوم تقوم فى طريقهم إلى شرق الأردن حيث رأى أن يمر ببنى إسرائيل قبل أن يعبر إلى أرض كنعان ، فأرسل إليهم رسولاً يستأذنهم فى المرور فأبوا ، ودار موسى ببنى إسرائيل حول بلاد أدوم فضاقوا بمشقة الطريق وجفاف العيش وبرموا بموسى وربه فأرسل عليهم حيات تلدغهم ومات منهم عدد كبير حتى استغفر لهم موسى ليرفع عنهم الحيات ، وداوم موسى على السير وحارب فى طريقه الأموريين وانتصر عليهم كما انتصر على عوج ملك باشان ثم نزل بقومه إلى عربات مؤاب عبر أردن أريحا وأشرف على أرض كنعان إلى الغرب من الأردن .

واختار بنو رأوبين وبنو جاد السهل الواقع إلى شرق الأردن سكنًا ومقامًا ، وانضم إليهم نصف سبط منسى على ألا يقعدوا عن الحرب مع قومهم حتى يتم لهم النصر على الكنعانيين وقضى لهم موسى بذلك ما وفوا بهذا العهد .

وحرم موسى على الإسرائيليين امتلاك أدوم فهى لأبناء عمومتهم بنى عيسو كما حرم عليهم كذلك امتلاك أرض مؤاب وعمون فهى لأبناء لوط . ثم أتم رسالته ووصاياه الأخيرة إلى بنى إسرائيل وخلف عليهم

يشوع بن نون ثم تركهم وصعد إلى جبل « نبو » وحيدًا ليموت ، قبل أن تطأ قدمه أرض الميعاد .

* * *

لم تكن فلسطين فى ذلك الوقت تمثل وحدة سياسية من أى نوع ولم يتح لها فى تاريخها أن تتمتع بكيان سياسى معين بل كانت طوال تاريخها منتجع قبائل تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى أحيانًا وتخضع فى أغلب الأحيان لحكم الدول القوية المجاورة كمصر وبابل وأشور . وحين أفل نجم الساميين فى الهلال الخصيب وبزغ نجم الشعوب الهندو أوربية كالحيثيين والفرس والهيلينيين والرومان ، خضعت فلسطين لتلك الدول الناشئة واحدًة بعد الأخرى فامتدّ إليها سلطان الحيثيين واجتاحها الفرس ثم اليونان فالرومان حتى بزغ فجر الإسلام فدخلت فى نطاق الدولة الإسلامية الكبرى حتى سقوط الخلافة العثمانية فى ختام الربع الأوّل من القرن العشرين ، ففرض عليها الانتداب البريطانى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ولكن غلبة العناصر السامية على فلسطين ظلت سائدة لا تتأثر بنزوح العناصر الجديدة التى سادتها طويلاً ، وإن لم تتمتع بنوع من الاستقرار السياسى إلاّ فى ظل الإسلام حيث صهرت تلك العناصر العديدة فى البوتقة العربية الكبرى التى جمعت الجنس السامى أو العربى لأوّل مرة فى التاريخ وأصبحت فلسطين جزءًا من بلاد العروبة التى وحدها الإسلام فى نطاقه الكبير .

وكانت فلسطين قبل دخول الإسرائيليين إليها تخضع للدولة المصرية منذ اجتاحها أحمس الأوّل فى أعقاب الهكسوس ووضع قواعد الإمبراطورية المصرية التى امتدت إلى أعالى الفرات على يد الأحامسة

والرعامسة وسادت تلك البقاع قرابة خمسة قرون بعد ذلك .

إلّا أن السيادة المصرية على فلسطين لم تكن قوية على الدوام ، وكانت تتأثر إلى حدٍّ بعيد باهتمام فرعون بالإمبراطورية وبما يبذله من جهد لدعم النفوذ المصرى فى أجزائها ، ويبدو أن امتناع الإسرائيليين عن دخول فلسطين فى البداية كان بسبب خوفهم من المصريين ، وأن سنوات التيه الأربعين لم تكن إلّا انتظارًا للوقت المناسب الذى تضعف فيه السيادة المصرية على البلاد فيدخلونها آمنين ، ولعل فى ذلك ما يفسر نبوءة التوراة بمنع موسى عن دخول أرض كنعان فقد حضرته الوفاة وقومه يعسكرون فى أرض مؤاب مقابل أريحا ، فأراد أن يخلف على قومه من يثق بصدقه وحسن قيادته حتى يضمن طاعتهم له بعد وفاته . ويرى بعض المؤرخين أن موسى لم يكن نبيا فحسب وإنما كان قائدًا وسياسيًّا أيضًا ، وحين حضرته الوفاة لم يكن هذا الوقت المناسب قد آن لبنى إسرائيل لدخول أرض كنعان ، وليس هناك من ينكر أن موسى بعدما قام به من جهد فى قيادة بنى إسرائيل والخروج بهم من مصر لم يكن يرغب فى الدخول إلى أرض كنعان على رأس قومه ، لولا ما عاقه عن دخولها قبل أن تحضره الوفاة سواء كان السبب دينيًّا أم سياسيًّا .

ويقال إن زحف بنى إسرائيل إلى أرض كنعان واستيلائهم على سهل الأردن كان فى أيام الفرعون امنحوتب الثالث ففى نهاية حكمه وبداية حكم أخناتون بدأ ضغط الحيثيين من الشمال على أملاك مصر ، وفى لوح من ألواح تل العمارنة اكتشف عام ١٨٨٧ ما يشير إلى طلب النجدة من فرعون مصر لصد زحف الحيثيين على فلسطين من الشمال وزحف أقوام آخرين يسمون « العبيرو » أو الخبيرو « Habiru » من الجنوب والشرق ويرى بعض المؤرخين أن هؤلاء الذين يقال لهم « العبيرو أو الخبيرو » هم

العبريون [1].

ولم يكن ما يعرف بالملوك فى تاريخ فلسطين غير رؤساء عشائر أو شيوخ قبائل لا يمتد سلطانهم إلى أكثر من المدن التى يحكمونها أو الأراضى التى يملكونها ولو لم تتناولهم أسفار العهد القديم لعبر التاريخ بهم دون أن يشير إليهم . وكانوا دائمًا فى صراع مع بعضهم البعض وقليلاً ما يتفقون أو يتحالفون إلّا لصدّ غاز أو مغير ، والدليل على تفاهة تلك العشائر أو القبائل أن النقوش والمدوّنات المصرية لا تذكرهم ولا تشير إليهم بشىء كما أشارت إلى الحيثيين والفلسطينيين مثلاً كما لا تشير إلى إسرائيل أو تذكرها إلّا فى عهد سليمان ولا نجد لهذه القبائل كما لا نجد لإسرائيل ذكرًا فى المدوّنات البابلية والأشورية إلّا حين احتاج الملك نبوخذ نصر البابلى مملكة يهودا ودمرها ونقل اليهود سبايا إلى بابل ، وحين اجتاح شلمناصر الأشورى السامرة وشتّت سكانها إلى حيث أغفلهم التاريخ فلم يسمع لهم ذكر بعدها .

ومن تلك العشائر والقبائل التى ذكر العهد القديم : الأدوميون فى جبل سعير إلى الجنوب من البحر الميت ، وبنو مؤاب وبنو عمون وبنو جلعاد وبنو باشان عبر الأردن شرقًا ، ثم الكنعانيون والأموريون والجوشيون والفرزيون واليبوسيون والعمونيون إلى الغرب من الأردن . وقد ذكر العهد القديم الحيثيين بين هؤلاء ، ولم يكن الحيثيون من الجنس السامى بل إنهم أحد الفروع الهندو أوربية وكانت لهم مواقع واشتباكات مع المصريين أشارت إليها النقوش والمدوّنات المصرية بالتفصيل كما عقد أحد ملوكهم معاهدةً مع رمسيس الثانى فرعون مصر بعد أن خاض معه عدة معارك

---

(١) Learsi, Rufus :P. 39.

كانت أعلاها ذكرًا معركة قادش فى تخوم لبنان ، كما ذكر الفلسطينيين أيضًا وهم سكان الساحل الجنوبى لفلسطين وليسوا بدورهم من الفروع السامية بل كانوا من شعوب البحر الأبيض المتوسط ، تلك الشعوب التى ترجع بأصولها إلى الأناضوليين القدماء الذين سكنوا الأناضول قبل الحيثيين[1] ولم يرد ذكر الفلسطينيين فى الأسفار الأولى للعهد القديم ولم تشر إليهم النبوءات التى تناولت الكنعانيين كما تناولت الحيثيين وإن جرت بينهم وبين الإسرائيليين وقائع تناولتها الأسفار الأخيرة من العهد القديم .

ولم يشر العهد القديم إلى معارك جرت بين الحيثيين والإسرائيليين وإن ذكر العهد القديم أن الإسرائيليين سيغلبون الحيثيين كما يغلبون الكنعانيين وغيرهم من الأقوام الآخرين ، ولكن مما لاشك فيه أن الإسرائيليين كانوا دون الحيثيين قوّةً وصولة ، فما كان يستطيع أن يقف أمام الحيثيين غير المصريين ، ولكن لعله حلم من أحلام بنى إسرائيل امتدّ بهم إلى أمل التغلّب على الحيثيين ووراثة جاههم وصولتهم فى الهلال الخصيب . فلما تولى يوشع قيادة إسرائيل بعد موسى كان عليه أن يحقق نبوءة العهد فيقتحم أرض كنعان ويقضى على تلك الأقوام التى تملكها لتكون ملكًا لبنى إسرائيل وحدهم ، فعبر الأردن واقتحم أريحا وعاى ودمرهما ثم التقى مع حلف من ملوك أورشليم وحبرون وبرموت ولخيش وعجلون فأوقع بهم الهزيمة ، ووقعوا فى يده أسرى فقتلهم وصلبهم نهارًا بأكمله[2] . ثم خاض حروبًا أخرى مع عدد من الملوك الآخرين وأوقع بهم هزائم أخرى واستولى على أراضيهم .

ولم يستطع يوشع بن نون فى حياته أن يستولى على كل أراضى فلسطين

---

(١) انتصار الحضارة ص ٢٤٥ .

(٢) يشوع ١٠ : ٢٦ .

وبقيت بيت المقدس التى يملكها اليبوسيون عصيّةً عليه كما استعصت على بنى إسرائيل أيضا أراضى الفلسطينيين ، ولم يستطيعوا القضاء على القبائل التى أنبأتهم التوراة بالقضاء عليها .

وبعد يوشع بن نون لم يقم فى بنى إسرائيل لثلاثة قرون ونصف قرن قائد يجمع كلمتهم ويوحّد صفوفهم فتفرقوا أسباطًا حتى أوشكت الفرقة أن تهدّدهم بالزوال والضياع ، وانقلب الرعاة زراعًا مستقرين وغلبت عليهم حضارة البيئات الزراعية فجفتهم خشونة الصحراء إلى طراوة المدن ولين الاستقرار وهجروا عقائدهم إلى عقائد الكنعانيين فعبدوا البعل إله الكنعانيين بدل عبادة الله التى بعث بها إبراهيم وموسى ، وغلبت تقاليد الكنعانيين والأموريين والحيثيين والأقوام الأخرى المجاورة على تقاليدهم، واتصلوا بتلك الأقوام بالزواج والمصاهرة حتى أوشكت تلك الأقوام أن تتمثلهم ، وكان موسى حريصا على ألّا يأذن لقومه بالتشبّه بتلك الأقوام حتى لا تغلب وثنيتهم عبادة بنى إسرائيل ووحدانيتهم وأنذرهم بسوء المنقلب إن نسوا ذلك .

ويبدو أن تلك البلاد لم تتأثر كثيرًا بدخول بنى إسرائيل ، فلم يعد نزوح بنى إسرائيل إلى أرض كنعان أن يكون هجرة أقوام جفتهم الصحراء إلى الأرض الممرعة الخصبة ، ولم تكن فلسطين وحدها بل كانت منطقة الهلال الخصيب جميعًا منطقة صراع حادٍّ بين سكان الصحارى وسكان السهول فكثيرًا ما اجتاح سكان الصحارى ، حين تضغط عليهم الصحراء بجفافها وقحطها ، سكان السهول فقضوا على حضارتهم ، وغالبًا ما قضوا عليهم أو حملوهم على النزوح إلى مناطق أخرى ، إلّا أن نزوح بنى إسرائيل إلى أرض كنعان لم يترك مثل هذا الأثر فقد استقرّ الإسرائيليون وامتلكوا كثيرًا من الأراضى التى غلبوا عليها وأقاموا إلى

جوار الأقوام الأصليين وطبعتهم حياة الإقليم بطابعها فحالفوا قومًا وحاربوا آخرين كما كانت الحياة بين تلك الأقوام نفسها قبل نزوح الإسرائيليين وبعد نزوحهم . ولم يكن غريبًا إذن أن تطبع الحياة الجديدة هؤلاء النازحين الجدد بطابعها الغلّاب ، أو أن يتمثّلهم هؤلاء الأقوام فى داخلهم فإنهم يمتّون جميعًا ، إذا استثنينا الفلسطينيين ، إلى أرومة واحدة هى التى تعرف بالسامية .

ولم يرد فى نبوءات التوراة أو فى وصايا موسى إلى قومه ما يشير إلى الرغبة فى إقامة ملك أو دولة لإسرائيل ، بل إن قسمة الأرض بين أسباط إسرائيل تجبّ فى حدّ ذاتها نزعة الملكية أو الدولة ، وكل ما حرصت عليه شريعة موسى ألّا تضيع بينهم تلك الرابطة العنصرية التى تجمعهم فى نطاقها حتى لا تطغى عليهم وثنية الأقوام الآخرين إذا ما تفرّقوا شيعًا فإن ذلك قمين بأن يذيبهم فى الشعوب التى يتصلون بها اتصال زواج أو مصاهرة ، أو يختلطون بها نزولًا على العادات الاجتماعية للقربى والجوار .

ولم يكن عمل القضاة – فى ذلك العهد الذى عرف بعهد القضاة فى تاريخ بنى إسرائيل – إلّا إحياء جذوة العنصرية الإسرائيلية والإبقاء على وحدة الشعب الإسرائيلى وتقاليده ، بتذكيرهم بالشريعة والوصايا وعهد الرب ونذره ووعيده إن ضلّوا ، وأحيانًا كانوا يقودونهم فى غزواتهم أو يدفعون بهم أعداءهم .

ورأى بنو إسرائيل أن يكون عليهم ملك كما على الأقوام الآخرين، وتقدم شيوخهم إلى صموئيل آخر قضاتهم ليختار لهم ملكاً يقودهم ويدفع عنهم أعداءهم ويدينون له بالولاء على غير هوى منه فقد حذرهم صموئيل من استبداد الملوك وأنذرهم بألّا يسمع إليهم الرب إذا ما استصرخوه من

استبدادهم[1] . واختار لهم صموئيل شاءول ملكًا « شاب وحسن ولم يكن رجل فى بنى إسرائيل أحسن منه من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب[2] » .

واتصلت الحروب بين الإسرائيليين بقيادة شاءول وبين غيرهم من القبائل الأخرى وخاصة الفلسطينيين هزيمة ونصرًا ، وفى تلك الحروب برز داود الذى خلف شاءول ملكاً على بنى إسرائيل بقتله جالوت جبّار الفلسطينيين ولما يزل صبيا يرعى غنم أهله الذين ذهبوا إلى الحرب تحت إمرة شاءول ، أصابه بحجر مقلاع فى جبهته أوقعه أرضًا ، ثم اختطف داود سيف جالوت واحتزّ به رأسه فولّى الفلسطينيون منهزمين بعد مقتل جبارهم وارتفعت مكانة داود بين الإسرائيليين ممّا أوغر عليه قلب شاءول فهرب من وجهه حتى قتل شاءول فى معركة بينه وبين الفلسطينيين وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ودقّ جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان [3] ووقعت الحرب بين بيت داود وبيت شاءول حتى تم النصر لداود فأصبح ملكًا على بنى إسرائيل .

وفى عهد داود بلغ ملك بنى إسرائيل - كما جاء فى سفر صموئيل - مدًى بعيدًا وأحرز انتصارات عديدة ضدّ أعدائه وبنى قصرًا لنفسه على جبل صهيون فى أورشليم ولكنه لم يكلف من لدن الرب ببناء الهيكل ، فقد خص الرب بذلك ابنه سليمان . ولم تمض أيام داود هينةً فى بنى إسرائيل فقد اغتصب أكبر بنيه « أمنون » أخته لأبيه « ثامار » وغضب شقيقها « أبشالوم » لذلك فقتل أخاه انتقامًا لعرض شقيقته وفرّ هاربًا ، ثم أذن له

---

(١) صموئيل الأوّل ٨ : ١٠ - ٢٠ .

(٢) صموئيل الأوّل ٩ : ٢ .

(٣) H.G. Wells : C. XXI, P.84.

أبوه بالعودة وعفا عنه ، ولم يصبر أبشالوم ليرث ملك أبيه بعد موته وتعجل الملك فخرج على أبيه ثائرًا وخاض بأتباعه معركةً خاسرةً قتل فيها ضدّ أتباع أبيه ، ولم يلبث داود أن واجه ثورة أخرى قادها رجل من سبط بنيامين وقضى عليها ، وكان قد أسنّ وأشرف على نهاية العمر .

وخاض داود معارك عديدةً ضدّ الأدوميين والعمونيين والمؤابيين وأوقع بهم واستولى على أراضيهم بالرغم من وصايا موسى لقومه بمسالمتهم وتحريم أراضيهم على بنى إسرائيل مما يدل على أن اتجاههم لم يعد اتجاهًا دينيا لتحقيق وصية أو عهد وإنما أصبح اتجاهًا دنيويا يقوم على التملك والسيطرة .

وبالرغم من تلك الحروب التى خاضها داود ضدّ جيرانه من الفلسطينيين والكنعانيين والأدوميين والمؤابين والأموريين ، إلّا أنها لم تحسم الموقف بينه وبينهم وإن أثمرت انتصارات داود عليهم أنها جعلت من بنى إسرائيل قوةً لا يستهان بها وسط جيرانها .

واستخلف داود ابنه سليمان من بتشبع أحبّ نسائه إليه ملكاً بعده بأمر الرب ، وأوتى سليمان حكماً وحكمةً وكانت أيامه أيام سلام ورخاء وتجاوبت الآفاق أخبار حكمته فجاءته ملكة سبأ تخطب ودّه وتنهل من ينابيع حكمته . ويبدو من أخبار سليمان أنه لم يكن رجل دين بقدر ما كان رجل حكم وسياسة وإن لم تكن له نزعة أبيه الحربية فعاش فى سلام مع جيرانه فعاهدهم وعاهدوه وقوى هذا الرباط السياسى بالمصاهرة فتزوج من ابنة فرعون مصر كما تزوّج بغيرها من كلّ بيت عقد معه ميثاق ودٍّ وصداقة ، وكان محبًّا للنساء فكانت «له سبعمائة من النساء السيدات وثلثمائة من السرارى »[1] مع ابنة فرعون مابين «مؤابيات وعمونيات

(١) الملوك الأول ١١ : ٣ .

وأدوميات وصيدونيات وحيثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم[1] » .

ونمت تجارة سليمان فى البر والبحر فسارت القوافل آمنة ما بين مصر وبابل ومخرت سفائنه البحر فى كلّ صوب ، ومن ميناء عصيون جابر على خليج العقبة أبحرت إلى أوفير وعادت محمّلة بالذهب والعطور .

وبنى هيكل أورشليم بيتًا للرب « طوله ستون ذراعًا وعرضه عشرون وسمكه ثلاثون ذراعًا والرواق قدام هيكل البيت طوله عشرون ذراعًا حسب عرض البيت وعرضه عشرة أذرع قدام البيت[2] .

ولكن سليمان أبهظ كاهل شعبه بالضرائب والسخرة . وبدت العداوة سافرةً بين أسباط الشمال وأسباط الجنوب تلك العداوة التى أدّت فى النهاية إلى انقسام مملكة سليمان إلى مملكتين . ولم تنته حياة سليمان حتى كانت النذر قد آذنت بزوال إسرائيل وأفول فترة الرخاء والاستقرار الوحيدة فى حياتها .

ولم تتحقق نبوءة أرض الميعاد فلم يعد ملك داود وسليمان فى أقصى اتساعه منطقة التلال الداخلية فى فلسطين ، ولم يزد عليها شيئًا ، ولم يتأتّ لبنى إسرائيل بعد ذلك أن تكون لهم مملكة بمثل هذا الاتساع إذا جاز لنا أن نسمى ذلك اتساعًا ، وانقسمت المملكة بعد وفاة سليمان إلى مملكتين : مملكة إسرائيل فى الشمال ومملكة يهودا فى الجنوب .

وكانت مملكة إسرائيل أعزّ نفرًا من مملكة يهودا وأكثر ثراءً فقد جاوزت مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة يهودا ، وانضم إليها عشرة أسباط من بنى

---

(١) الملوك الأول ١١ : ١ - ٢ .

(٢) الملوك الأول ٦ : ٢ - ٣ .

إسرائيل فسميت مملكة الأسباط العشرة بينما بقى فى مملكة يهودا سبطان هما سبط يهوذا وسبط بنيامين . وكانت أرض الشمال أشدّ خصوبةً من أرض الجنوب ، ومدنها أكثر بهاءً واتساعًا من مدن الجنوب ، وكانت على طريق الرواحل والتجارة وهى ميزة لم تكن لمملكة يهودا ، إذا كان ثمة سلام بين مصر ودول ما بين النهرين ، فإذا لم يكن سلام فإن مصيرها معلّق بمصير الحرب بين القوتين المتنافستين فى الهلال الخصيب ولأيّهما تنحاز . ولعلّ ذلك مما عجّل بزوالها قبل أن تزول مملكة يهودا بحوالى قرن ونصف قرن .

ولم تشهد المملكتان فى حياتهما نوعًا من الهدوء أو الاستقرار سواء فى الداخل أو من ناحية أعدائهما فى الخارج ، فالثورات الداخلية تنوشهما والعدو يطرق أبوابهما والوباء والمجاعات تنتابهما ، حتى الوحدانية وعبادة رب البر قد شابتها وثنية الشعوب المجاورة ، ولم تعد شريعة موسى تلهم بنى إسرائيل وتلهب خيالهم كما كانت من قبل ، وغدا شعور الاضطهاد والخوف هو الذى يسيطر على أعمالهم ويسير حياتهم وغذت النكبات التى حلّت بهم طوال تاريخهم هذا الشعور بالخوف والاضطهاد فدفعهم إلى نوع من الشذوذ الاجتماعى أصبح أحد خصائصهم البارزة فيما بعد هو شذوذ الاستكانة والعزلة انعكس على طباعهم فأنجب القسوة التى طبعت سلوكهم حيال غيرهم ممن ليسوا من بنى إسرائيل ، ونمّى أواصر الألفة فيما بينهم فغذت روح العنصرية اليهودية وأورت ضرام التعصب القومى والدينى بين صفوفهم وشدّتهم بعضهم إلى بعض برباط من التآلف على طول ما باعدت بينهم الفرقة والتشتت فى أرجاء الأرض ، وأصبحت التوراة التى ضلّوا سبيلها وحادوا عن شريعتها على حياة أنبيائهم وكهانهم هى الملهم الفذّ لعنصريتهم ، ووحدتهم طوال خمسة وعشرين قرنا من المحن والمغامرة والاضطهاد والتشتت . وأصبحت اليهودية فى إيمانهم دينًا

ودولةً فكانت الصهيونية العالمية نتاج هذه العوامل التى تفاعلت جميعًا فى بوتقة العنصرية الضيقة والتعصّب المقيت .

وقد أضفى اليهود على تاريخهم ألوانًا من المجد والأهمية ، على حين أن التاريخ يعبر بهم عبورًا هيّنًا ضئيلاً ، ولولا التوراة ما ذكر التاريخ عنهم شيئًا ، فلم تكشف الحفريات لهم عن أثر خلفوه ولم تشر المدونات التاريخية إلى هذا التاريخ الذى أسهبت التوراة فى ذكر تفاصيله ، فليس فيما دونته مصر عن الحقبة التى عاشها الإسرائيليون بينهم ذكر لهم ولا لقصة الخروج أو أرض كنعان مع ما كان لمصر فى فلسطين من دور بالغ الأهمية أفاضت فى ذكره المدونات والنقوش المصرية القديمة . وعلى طول ما عاش الإسرائيليون فى فلسطين وكثرة ما خاضوا من حروب ضدّ جيرانهم فى أرض كنعان لا نجد ذكرًا لهم ولا لحروبهم فى المدوّنات المعاصرة مما يدل على أن الإسرائيليين لم يكونوا غير شعب قبلى مغمور ولم تكن حروبهم غير حروب قبلية ضئيلة ولا تذكر التوراة أنهم استطاعوا أن يملكوا فلسطين يومًا ما ، فإنهم لم يستولوا إلّا على منطقة التلال الداخلية منها ، واستعصت عليهم مدن الفلسطينيين وأراضيهم على كثرة ما قاموا به من هجمات عليها ، بل إن سليمان فى أوج مجده لم يكن غير ملك صغير يحكم مدينة صغيرة[1] وأن ما أضفته عليه القصص والأساطير من مجد وجاه وثروة ليس إلّا تقديرًا نسبيا يقاس بمن حوله من الملوك القبليين فى فلسطين ، فهيكل سليمان الذى شادت بذكره أساطير الإسرائيليين لا يعدو إذا قيس بأبعاده التى جاءت فى سفر الملوك ، كونه معبدا صغيراً يمكن أن تحويه - كما يقول ويلز - كنيسة من كنائس الضواحى . وإذا قسنا هيكل سليمان بمعابد المصريين والبابليين لغدا بناءً ضئيلاً إلى

---

(١) H.G. Wells : C.XXI,P.85.

جوارها ، ولكن الإسرائيليات قاست هيكل سليمان بهياكل القبائل الكنعانية والفلسطينية فبدا حيالها بكلّ هذا الرواء والجلال ، كما قاست تاريخ إسرائيل بتاريخ تلك الأقوام المجاورة فغدا إليها بارزاً ملحوظًا .

وكانت نهاية مملكتى إسرائيل الشمالية والجنوبية كنهاية الممالك التى قامت إلى جوارها ونافستها طويلا فى فلسطين ، فقد انتهت مملكة الشمال أو مملكة إسرائيل كما عرفت أو مملكة السامرة كما كانت تعرف أحيانًا نسبة إلى حاضرتها ، نهاية أليمة على يد « سرجون الثانى » ملك أشور عام ٧٢١ ق . م فقد استولى عليها وشتّت أسباطها العشرة كلّ مشتّت وأسكن السامرة غيرهم ، ولم تعد السامرة غير قصة عابرة فى التاريخ ولم يسمع التاريخ عن أسباطها شيئًا بعد ذلك فعرفوا بالأسباط العشرة الضائعة .

أما مملكة الجنوب أو يهودا فقد عاشت قرابة قرن ونصف قرن بعد سقوط مملكة إسرائيل ، ويذكر التاريخ أن الفرعون نخاو الثانى اجتاحها حين وقفت فى طريقه لغزو أشور ، وقتل ملكها يوشيا عند مجدو فى وادى جزريل وأصبحت يهودا تابعةً لمصر حتى اغتصبها نبوخذ نصر ملك بابل الجديد فأقام عليها ملوكًا ضعافًا يأتمرون بأمره ، ولكن أورشليم غدت مركز التآمر ضدّه مما دفعه إلى اجتياحها عام ٦٠٤ ق . م . ومزّقها شرّ ممزّق وأمر فنهبت أورشليم وأحرقت وحمل من بقى من القتل سبايا إلى بابل ، وهناك أقاموا حتى استولى كورش ملك الفرس على بابل عام ٥٣٨ ق . م ففكّ أسارهم وأرجعهم إلى أورشليم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء الهيكل والمدينة .

وطوال ما يقرب من ستة قرون منذ العودة حتى التشتيت لم يشهد هؤلاء العائدون نوعًا من الاستقرار فى تلك الرقعة الضئيلة التى آلت إليهم من أرض فلسطين حول أورشليم ، ولم تقم لهم دولة بالمعنى الحقيقى للدولة

ولم يحظوا إلّا بنوع من الحكم الذاتى وكانوا على الدوام تبعًا للدولة الغالبة .

وعاش اليهود فى أورشليم على ولاء مع الفرس وكان الفرس لهم عونًا فى بناء الهيكل ولكنهم لم يسمحوا لهم بتحصين المدينة وبناء أسوارها حتى أذن الملك « ارتحشتا » لساقيه اليهودى النبى نحميا وكان يقيم معه فى عاصمته « شوشن القصر » ببناء أسوار أورشليم . ويقال إن حظوة اليهود لدى ملوك فارس كانت لأسباب سياسية هى الثقة فى ولاء قوم يحرسون الطريق الرئيسى للزحف بين مصر وفارس .

وما لبثت دولة الفرس أن خرّت راكعةً أمام جيوش الإسكندر الأكبر وخرج كهّان أورشليم فى أروع ملابسهم يستقبلون القائد الشاب الذى وقف يطرق أبوابها عام ٣٣٤ ق . م . ويسلمون إليه مفاتيحها ويعلنون خضوعهم له وكعادة الإسكندر أبدى لهم إعجابه بإلههم وتقبّل منهم أورشليم .

وتقسم قواد الإسكندر إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته فكانت مصر وجنوب فلسطين التى تضم بلاد اليهود من نصيب بطليموس ، وظلّت بلاد اليهود تتبع دولة البطالسة وتؤدى لها الجزية أكثر من مائة سنة (٣١٨ – ١٩٨ ق . م .) تمتع اليهود خلالها بنوع من الحكم الذاتى تحت سلطان أورشليم الأكبر والمجمع المقدس المعروف بالسنهدرين .

وخلال تلك السنوات والسنوات التى تبعتها كانت فلسطين معترك الرحى بين الدولتين المتنافستين اللتين سادتا فى الشرق الأدنى بعد وفاة الإسكندر : البطالسة فى الجنوب والسلوقيون فى الشمال . وقد حسم بطليموس الأوّل هذا النزاع فى البداية بانتصاره على السلوقيين ، وتمتع البطالسة بثمرة هذا الانتصار طويلا حتى انتصر « انطيوخس الثالث » على

«بطليموس الخامس» وانتزع منه فلسطين وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية عام ١٩٨ ق . م .

وكان اليهود قد ملّوا حكم المصريين فأعانوا أنطيوخس على بطليموس ورحبوا بحكم السلوقيين ، إلّا أن السلوقيين لم يروافى بلاد اليهود غير مصدر للإيراد ففرضوا عليهم ضريبةً للدولة ثلث ما تغلّه الأرض من زراعة ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة كما فرضوا عليهم أيضًا اعتناق الثقافة الهيلينية .

وجزع اليهود من هذا الخطر خطر اعتناق الثقافة الهيلينية وما فيها من طقوس وثنية ونظم اجتماعية لا تتفق وتقاليدهم المستمدة من التوراة ، وثاروا بحكامهم السلوقيين فاجتاح أنطيوخس الرابع أورشليم وأعمل القتل فيهم ودنّس الهيكل وصادر آنيته وكنوزه والمذبح الذهبى وضمّها جميعًا إلى خزائنه الملكية وحمل الكهان قسرًا على الثقافة الهيلينية ، وأصبح الهيكل معبدًا مقدّسًا لزيوس ، وغدا مذبح الرب مذبحًا لآلهة الإغريق تقدم له القرابين من الخنازير التى يحرمها اليهود وأمر بتعميم الطقوس اليونانية ، وتحريم المراسم اليهودية ، وبالإعدام لكلّ من يخالف ذلك . ولم يكتف بذلك بل أشعل النار فى أورشليم وبيع سكانها فى أسواق الرقيق ، وشيّد حصنًا جديدًا على جبل صهيون ووضع فيه حاميةً من الجند لتحكم المدينة باسمه .

وثار جماعة من اليهود بقيادة كاهن من نسل هارون يسمى « متاثياس » اعتصم هو وبنوه الخمسة فى جبل أفرايم وجعل يشنّ حرب العصابات على الحاميات السلوقية وأحرز وأبناؤه من بعده عدة انتصارات على السلوقيين أدّت فى النهاية إلى سقوط أورشليم فى يد الثوار عام ١٦٤ ق. م . وعودة المراسم والطقوس اليهودية إليها . وعرفت هذه

الثورة بثورة المكابيين نسبةً إلى مكابى وهو لقب بوداس بن متاثياس الذى قاد الثورة بعد أبيه .

وقد استطاع آخر هؤلاء الاخوة من أبناء متاثياس وهو سيمون مكابى أن يحالف روما ونال من الإمبراطور « ديمتريوس الثانى » عام ١٤٣ ق.م . اعترافًا باستقلال بلاد اليهود واختير سيمون حاخامًا أكبر وقائدًا عسكريًا لليهود وبدأ بذلك حكم « الأسرة الهاسمونية » التى ينتسب إليها متاثياس وأولاده ، وصكّت عملةً يهوديةً تعلن ميلاد الدولة الجديدة .

ولأوّل مرة بعد العودة من السبى البابلى يتمتع اليهود بنوع من الاستقلال تحت رعاية روما وكانت روما حينذاك تشتبك فى صراع مرير مع البارثيين والسلوقيين والمصريين فاهتبل سيمون هذه الفرصة ، شأن اليهود فى كل زمان ، واتخذ جانب روما الناشئة القويّة ، كما اتخذ اليهود فى الوقت الحاضر جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ثم جانب الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن غدت لها الزعامة والقيادة فى العالم الغربى وتحت رعايتها أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، كما قامت دولة الهسمونيين تحت رعاية روما عام ١٤٢ ق.م .

وظلّ الهسمونيون طوال جيلين يوسعون حدود مملكتهم الصغيرة تارةً بالحرب وتارةً بالوسائل السياسية فاستولوا على السامرة واتسعت بلادهم حتى قاربت سعة مملكة سليمان غير أنهم أخذوا يفقدون غيرتهم الدينية واستسلموا شيئًا فشيئًا للثقافة الهيلينية التى حاربها أجدادهم مما أثار عليهم طائفة الفريسيين المتعصبة .

وجاءت نهاية الهسمونيين على يد الرومان كما كانت بدايتهم – ولعل ذلك يؤيد ما قلناه فى بداية هذا البحث وهو أن نهاية إسرائيل ستكون على يد الأمريكيين قبل أن تكون على يد العرب حين يستيقظ الأمريكيون على

استغلال الصهيونية لهم ويعرفون أن بلادهم ليست إلا مستعمرةً صهيونية فى حمى الدستور الأمريكى[1] - فقد اجتاح بومبى مملكتهم وحاصر أورشليم وهدم أسوارها ودخلها ظافرًا فوضع السيف فى رقاب اليهود وأصبحت أورشليم جزءًا من ولاية سوريا الرومانية ، فلما ثاروا على الوالى الرومانى أخمد ثورتهم وباع ثلاثين ألفًا منهم فى أسواق الرقيق ، وكان ذلك عام ٤٣ ق.م . ونصبت روما هيرود الأدومى ملكًا على أورشليم ، ولم يكن هيرود من أصل يهودى ولم يؤمن بالدين اليهودى عن عقيدة فقضى على سلطان الكهنة وحكم حكمًا دنيويًا خالصًا تسوده النظم والمظاهر الهيلينية والرومانية .

ولعله أراد أن يجمع إلى أبهة المظاهر الرومانية مجد سليمان فادّعى أن الهيكل الذى شاده اليهود بعد عودتهم من السبى البابلى منذ خمسة قرون ضيّق ، فهدمه رغم تطير اليهود وبنى مكانه هيكلاً فخمًا يقال إنه كان من عجائب العالم فى عهد أوغسطوس وأقام على أبوابه عمدًا كورنثية وعلّق على مدخله النسر الذهبى شعار روما عدوّة اليهود وسيّدتهم . وهو الهيكل الذى هدمه تيتوس عام ٧٠ م .

ولا ريب أن حكم هيرود كان نهايةً واقعيةً لحكم اليهود الخالص ، فقد ثار اليهود على ابنه « أركلوس » الذى حكم بلادهم بعد وفاة أبيه ، فأعمل فيهم القتل . وتألفت عصابات يهودية لتهديد كلّ من يشايع روما

---

(١) نشرت الصحف ونحن نكتب هذا الكلام (٢٨ يونيه ١٩٥٩) تقريرا تقدم به عدد من الدبلوماسيين الأمريكيين المتقاعدين والذين كانوا يعملون فى العالم العربى ، إلى لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى يقولون فيه إن أعظم خطأ ارتكبته أمريكا فى سياستها الخارجية تجاه الشرق الأوسط هو تأييدها لإسرائيل ضد العرب ، وطالبوا بأن تنظر أمريكا إلى مشاكل الشرق الأوسط بالعين الأمريكية وعلى ضوء مصلحة أمريكا الوطنية وأن تقاوم ضغط الأقلية الأمريكية التى تسيرها وجهة خاصة .

فزحف والى سوريا على فلسطين وهدم مدن اليهود وصلب ألفين من الثوار وباع ثلاثين ألفًا فى سوق الرقيق ، وذهب وفد إلى روما من زعماء اليهود يرجون الإمبراطور أوجسطوس إلغاء الملكية حتى يتخلّصوا من حكم أركلوس فاستجاب إليهم وعزل أركلوس وأعلن البلاد ولايةً رومانيةً وعيّن عليها حاكمًا مسئولاً أمام والى سوريا .

وتواتر الحكام واحدًا بعد الآخر وحال اليهود تزداد سوءًا ، وكان ما يصيبهم من بلاء جزاءً لشذوذهم وخروجهم على الدولة ، فقد انتشرت عصابات المغتالين تغتال غدرًا كلّ من لمست منه ولاءً لروما ، سواء من اليهود أو غير اليهود أنفسهم ، وانقسم يهود أورشليم على أنفسهم بين مشايع لروما وناقم عليها ووقعت فتنة بين الفريقين قتل فيها الناقمون اثنى عشر ألفًا من المشايعين ، وعمت المذابح بين الطوائف اليهودية وغير اليهودية فقام الناقمون بتدمير عدد من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا وأحرقوا بعضها وقتلوا أهلها وفى نفس الوقت أوقع السكان فى كثير من المدن الفلسطينية القتل والذبح باليهود .

وما وافى عام ٦٦ حتى كان الناقمون قد قضوا على كل مشايع لروما وانضمت البقية الباقية منهم إلى الثوار حتى ضاقت روما بهم فسيّرت عليهم فيالقها بقيادة تيتوس عام ٧٠ ، وأمام هذا الخطر الذى يؤذن بشر النكبات تجمع اليهود بعد فرقة فى وحدة حانقة متعصّبة ويقال إن ما اجتمع منهم فى أورشليم بلغ ستمائة ألف ، وسرت روح القتال فى الشيوخ والنساء .

ويبالغ المؤرخون اليهود فى مقاومة اليهود ويذكرون من أعداد القتلى والمصلوبين والذين بيعوا فى أسواق الرقيق ما تنوء به الحقيقة التاريخية المجردة ، ولعلّ فى الخلاف بين يوسيفوس وتاسيتوس فى تعداد الخسائر البشرية ما يؤكد عدم دقّتها والمبالغة فيها فيوسيفوس يقدّرها بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفًا بينما يقدرها تاسيتوس بستمائة ألف .

واقتحمت القوات الرومانية أورشليم وغدا الهيكل طعمًا للنيران وقتل كل يهودى عثر به الرومان حيًّا ، ولكن المقاومة اليهودية استمرت فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ إلا أن خراب أورشليم ودمار الهيكل كانا فى الواقع نهاية الشعب اليهودى فى أرض الميعاد فلم يعد منهم من يقيم فيها غير قلة تعيش على الكفاف يؤدّى كلٌّ من أفرادها رغم فقره للمعابد الوثنية فى روما نصف الشاقل الذى كان يؤدّيه اليهودى البار لهيكل أورشليم .

وبدأ اليهودى التائه منذ ذلك الحين تجواله الأبدى .

ولا نجد فى كلّ ما مر من هذا التاريخ مصداقًا لنبوءات الكتاب المقدّس فلم يقض بنو إسرائيل على الكنعانيين ولا على غيرهم من الشعوب والقبائل الأخرى التى كانت تتوطن أرض الميعاد ، ولم تصل حدود دولتهم فى أقصى اتساعها إلى الحدود التى تنبأ بها العهد القديم لهم ، ولم تكن لهم فلسطين جميعًا فى أى يوم من الأيام ، ولم تردّد الأسفار التى تلت سفر التكوين ما جاء فى هذا السفر الأوّل عن امتداد أرض الميعاد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » ومعنى ذلك أن تمتد أرض الميعاد إلى ما وراء حدود الهلال الخصيب ، وقد رأينا أن الإسرائيليين لم يكن لهم فى تاريخ الهلال الخصيب غير دور ضئيل وأن سيادة الهلال الخصيب على الدوام كانت للساميين إلا فى الفترة التى شهدت غلبة الشعوب الهندوأوربية أو الآرية قبل امتداد الموجة السامية مرةً أخرى على يد العرب .

ولا نستطيع أن نجد مصداقًا للوعد المقدّس فى تاريخ ذرية إبراهيم إلا فى انتصار الإسماعيليين الذين اندمجت فيهم قبائل العرب وكان منهم محمد خاتم الأنبياء من سلالة إبراهيم ، فقد حقق انتصار الإسماعيليين كل نبوءات عهد الرب مع إبراهيم ففى مدى لا يزيد على بضعة عشر

عامًا بعد توحيد الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام ، أصبحت سيادة الهلال الخصيب وما وراء الهلال الخصيب من بلاد النهرين وفارس ومصر وشمال أفريقيا ، لأولئك العرب العدنانية من نسل إسمعيل بكر إبراهيم وصاحب عهد الختان الذى عقده الرب مع إبراهيم.

وليس لنا أن نقطع فى عهود الرب إلا بما يؤيّدها من أحداث التاريخ ، وقد رأينا كيف جرى التاريخ بإسرائيل حين كانت فيهم بركة العهد والرسالة قبل ظهور المسيح عيسى ، فلم يفوا بعهد الرب فانتزعت منهم بركة العهد وبقيت فيهم الرسالة لعلهم يفيئون إلى الهدى فتشملهم بركة العهد من جديد ، وقد جاوزتهم بركة العهد يوم كفروا بالرسالة فعبدوا العجل فى برية سيناء ، ويوم عصوا موسى يوم أراد أن يدخل بهم أرض كنعان ، وأيام رجعوا عن شريعة موسى ودنّسوها بعبادة الأوثان فحلّت بهم لعنة المعصية فى كلّ مرّة من هذه المرّات ، ونزلت بهم عقوبة الكفر فى كلّ تلك الأيام وكثيرًا ما كانت معاصيهم وكان كفرهم بدين إبراهيم وإسحٰق وموسى ، مما دوّنته أسفار العهد القديم .

ويمكن أن نقول بعد ما أسلفنا من تمحيص العهود المقدسة أنها تنتهى بالنسبة لبنى إسرائيل ببعث المسيح الذى جاء مبشرًا بملكوت السماء لكلّ البشر وليس لبنى إسرائيل وحدهم ، إلا أن رسالة المسيح لم تكن غير حركة إصلاح قوية للشريعة الموسوية وللآثام التى تردّى فيها بنو إسرائيل ونسبوها إلى شريعة موسى . ولم تكن رسالة السماء لتكمل إلا إذا انتظمت عبادة الله وعلائق البشر بعضهم ببعض على قواعد ثابتة ، فكانت رسالة محمد ختام رسالات السماء ، وجاءت بالقول الفصل فى صفة الله الواحد الأحد ، وفى التشريع للحياة تشريعًا يبقى على الزمن حيًّا بتقادم الزمن وتطوّر العقل البشرى وتقدّمه ، وفى رسالة محمد شملت بركة العهد والرسالة كلّ مسلم سواء أكان من ذرية إبراهيم أم من غير ذريته كما قلنا

من قبل إلا أن أرض الميعاد وهى الأرض المختارة للبركة والرسالة بقيت إرثًا فى ذرية إبراهيم سكنها المؤابيون والعمونيون من سلالة لوط ابن أخيه ، وسكنها الأدوميون من سلالة عيسو بن إسحق بن إبراهيم ، وذلك قبل أن يملك يعقوب وذريته أرضًا فى بلاد كنعان ، فلما ارتحل بنو إسرائيل إلى مصر ثم خرجوا منها إلى أرض كنعان بقيادة موسى ، كان أبناء عيسو قد استقروا وطابت لهم الحياة فى أرض الميعاد ، وكانت وصية موسى لقومه حين قسم الأرض بين أسباط إسرائيل ألا تكون لهم أرض المؤابيين والعمونيين والأدوميين وحرم عليهم حربهم أو العدوان عليهم . ثم أقام بنو إسرائيل فى أرض كنعان بضعة قرون بعد خروجهم من مصر لم يستطيعوا أن يحققوا خلالها الوعد الإلهى بامتلاك أرض الكنعانيين وكانت نهايتهم تلك التى ذكرنا من قبل لضلالهم ولما ارتكبوا من معاص . وبقى الوعد الإلهى قائمًا لا يتحقق حتى كانت أرض الميعاد أوّل ما امتلك الإسماعيليون أو العرب العدنانية فى موجة الانتشار الإسلامى الباهر . وتحقق فيهم الوعد الإلهى بوراثة أرض الميعاد لذرية إبراهيم ، وفى رعايتهم أصبحت أرض الميعاد قدس الأديان السماوية الثلاثة وغدت أورشليم أو بيت المقدس قبلة اليهود والنصارى والمسلمين حتى اليوم تضم المبكى وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى .

وهكذا كان مصداق الوعد لما جاء من عهود الرب لإبراهيم .

أما عودة إسرائيل إلى أرض الميعاد فليس فى أسفار العهد القديم الأولى ولا فى أسفار العهد الجديد ولا فى القرآن ما يشير إليها فقد انتهت بسقوط يهودا على يد نبوخذ نصر عهود الرب ووعوده التى وعد بها إبراهيم وإسحق وموسى ، وإنما بقيت التوراة وبقى السبى البابلى وبقيت آمال الأنبياء ومراثيهم ونبوءاتهم تلهب خيال اليهود وحنينهم الدينى إلى أورشليم وتزكى فيهم كرامية مقيتة تبدو فى سفر أرميا وفى الأسفار الأخيرة

من العهد القديم وفى التلمود لكلّ من عرفت إسرائيل من أمم وشعوب تعتقد أنها تحول بينها وبين أمانيها فى أرض الميعاد ، كراهيةً ظلّت ساريةً فى الأعقاب طوال تاريخهم إلى وقتنا هذا ، وتتخيّل قيام ملك من نسل داود ذى جاه وصولجان يخلّص اليهود من السبى ويعود بهم إلى أرض ميعادهم ويقيم مملكة داود لتخضع لها كل ممالك الأرض .

وقد تسرّبت فكرة المسيح المخلّص إلى العقيدة اليهودية من العقيدة البابلية ، فقد كان البابليون يعتقدون بعودة « مردخ » إله بابل حينًا بعد حين لنشر الخير وتطهير الأرض من الفساد ، وفى العقيدة المصرية القديمة كما يقول برستد مايشبه ذلك فإن سقوط الدولة القديمة قد جعل المصريين يتطلعون إلى المنقذ الذى يعيد إلى الدولة مجدها ، فقد روى عن الحكيم « أبيود » أن المنقذ يحيل النار بردًا وسلامًا ويرعى الناس جميعًا ويلمّ شمل قطعانه . وفى العقيدة الزرادشتية أن زرادشت يبعث كلّ ألف عام فى صورة إنسان خارق لا نظير له ليرعى العقيدة ويهدى الإنسانية . ومن ثمّ كان اتصال اليهود بتلك العقائد جميعًا مدعاة إلى تسرّبها إليهم ، وفى السبى البابلى قويت هذه العقيدة فى نفوسهم فتصوروا المنقذ أو المخلّص ملكًا ذا جاه وصولجان من نسل داود يمسح بالزيت المقدس وفق الشعائر اليهودية ليعيد مجد إسرائيل ويقيم مملكة داود وسمى ، بالمسيح نسبةً إلى هذا المسح بالزيت المقدس ، ودعى الكهان والأنبياء مسحاء الرب لذلك ، وفى سفر الأيام « لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى » وجرت شعائر المسح على ملوك إسرائيل فكان شاءول أول من مسح منهم بالزيت المقدس عند تتويجه .

وتطورت عقيدة المسيح المخلّص بتطوّر التاريخ اليهودى فلم يعد ذلك الملك المنصور المتوج ذى الجاه والصولجان بل غدا رجلا مسكينًا يبشر بالخير والهداية والصلاح ، يسبقه من يعلن مجيئه ويبشر ببعثه وكانوا

ينتظرونه على رأس كل ألف عام من بدء التقويم العبرى .

ولا يؤمن اليهود برسالة المسيح بن مريم ومازالوا فى انتظار المسيح المخلص إلا أن الصهيونية لا تثير تلك العقيدة ولا تشير إليها فى فلسفة القومية اليهودية التى تنادى بها ولعلها ترى فى الإشارة إليها ما يثير عليها الطوائف المسيحية فتتجنّبها لذلك .

والحق الذى يدّعيه اليهود فى أرض الميعاد لا يقوم على نبوءات العودة وانتظار المسيح المخلّص فهى نبوءات طارئة تسربت إلى العقيدة اليهودية كما قلنا من العقائد المجاورة ولم يتجاوز الأمل الذى عصف بالأنبياء خلال السبى البابلى وبعده ، وإنما يقوم على الوعود الإلهية لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، وقد انتهت تلك الوعود بنهاية مملكة داود وسقوط أورشليم على يد نبوخذ نصر ، فإذا كان ثمة إيمان بالعودة فقد عاد بنو إسرائيل من مصر إليها على يد موسى ثم عادوا إليها بعد السبى البابلى على يد كورش وانتهت العودة الأولى بالسبى البابلى وانتهت العودة الثانية بتشتيت اليهود على يد الرومان وليس بعد ثمة نبوءة بعودة ثالثة لإسرائيل .